
المنظومة
ALMANDUMAH



المنحنى الشخصي لحياة الإمام أبي الحسن الأشعري

ذ. يوسف احنانة[1]

يعد الحديث عن المنحنى الشخصي لأي شخصية من شخصيات الكون حديثا عن مدى تفاعل هذه الشخصية مع محيطها الثقافي، والفكري، والسياسي، وعن مدى تأثرها به وتأثيرها فيه.

وإذا كان علم النفس الاجتماعي يعمل على تبين هذه العلاقة، والتأكيد عليها، وتشخيص عمق تكوين شخصية أصحابها، وتحولاتهم المعرفية، والفكرية، والعقدية انطلاقا من هذا التفاعل والتأثير والتأثر. فإننا نجد أن هذه المقاربة السيكوسوسيولوجية أنسب في تحديد معالم شخصية الشيخ أبي الحسن الأشعري العلمية والعقدية لا سيما وأن شخصيته قد عرفت تحولات مفصلية على مستوى العقيدة، وفي نفس الوقت طالها ما طالها من التشويش، ولحقها ما لحقها من الغموض والالتباس، وصل أحيانا إلى حد الافتراء عليه، والتلبيس على أفكاره وقناعاته، وأحيانا إلى الطعن في دينه ومعتقده، بل وإخراجه من الملة والدين.

ولعل المتأمل في حياة أبي الحسن الأشعري الفكرية وتطورها، يجد رمزيات دالة، يختلط فيها أحيانا الماضي بالحاضر، ويمتزج الواقع فيها مع الخيال، والمعقول مع اللامعقول،

1- أستاذ متخصص في الفكر الأشعري/المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين بتطوان.

والعيان مع الحلم أوالرؤيا المنامية. وبين كل طرف من أطراف هذه الثنائيات، تتعدد التفسيرات والتأويلات، فتختلف وتتباعد.

ونحن من خلال هذه المقاربة سنحاول ترصد المنعرجات المعرفية والفكرية التي طبعت حياة أبي الحسن الأشعري، وأشكال المبررات التي قدمت لها وفهمت من خلالها، علنا نرسم صورة واقعية عن مسار مفكر من العيار الثقيل مثل هذا الشخص.

الحكمة يمانية: جنيالوجيا الحكمة الأشعرية

يرجع نسب الإمام أبي الحسن الأشعري إلى الصحابي الجليل أبي موسى الأشعري، والذي يرتفع نسبه إلى الجماهر بن الأشعر بن أدد، حتى قيل إن تسمية الأشعري جاءته من الجد "الأشعر" الذي قيل إنه سمي بهذا الاسم لأنه ولد أشعر. وأصل أبي موسى الأشعري يمني، فقد قدم منها والتحق هو وثلة من بني الأشعر برسول الله ﷺ أثناء غزوة خيبر[1] في السنة السابعة للهجرة. كما أن رسول الله ﷺ كان قد بعثه لنشر الدعوة في اليمن في السنة العاشرة للهجرة. وقد ولاه كل من الخليفة عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان ولاية البصرة[2].

فقد ثبت أن رَسول اللَّهِ ﷺ قال: «أَتَاكُمْ أَهْلُ الْيَمَنِ هُمْ أَلْيَنُ قُلُوبًا، وَأَرَقُّ أَفْئِدَةً. الإِيمَانُ يَمَانٍ، وَالْحِكْمَةُ يَمَانِيَةٌ، وَرَأْسُ الْكُفْرِ قِبَلَ الْمَشْرِقِ»[3].

يتضح لنا من هذا الكلام أن رسول الله ﷺ شهد لآل الأشعري بالحكمة أعني بقوة وضع الأشياء في موضعها. أعني إصابة ما يرضى عنه الله تعالى، واجتنـــاب ما يكرهــه أو يحرمه. وفي نفس الوقت بالرقة واللين والصفاء في الطوية والقلوب. وفي هذه الشهادة

1- ابن عساكر: تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام الأشعري. نشرة القدسي مطبعة التوثيق دمشق: 1347. ص: 36.

2- المصدر نفسه، ص: 37.

3- رواه بهذا اللفظ مسلم في صحيحه: (كتـــاب الإيمان- باب: تفاضل أهل الإيمان فيه)، انظر: الصحيح، بعنايـــة: محمد فؤاد عبد الباقي، ط: دار الفكر، بيروت: 1403/1983: 73/1 رقم: 90. (تخريج المجلة).

دلالة واضحة على صدق طوية آل الأشعري سلفا وعقبا. «فالأشعريون بالفقه من زمن رسول الله ﷺ موصوفون، وبالعلم عند الأعلام من الصحابة رضي الله عنهم معروفون»[1]. بل إن هناك أحاديث صريحة تفيد في معناها المباشر أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَاتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥ﴾ [المائدة:56]، قال رسول الله ﷺ: هم قوم هذا، وأشار إلى أبي موسى الأشعري[2]. ومن العلماء من استنتج من هذا الحديث أن رسول الله ﷺ قد أشار في هذا الحديث إلى مجيء الإمام أبي الحسن ومذهبه في عقيدة أهل السنة والجماعة.

المحطة الأولى: أبو الحسن الأشعري من السنة إلى الاعتزال

حينما نتكلم عن أبي الحسن الأشعري فإن الأمر يتعلق بالمفكر السني، والمتكلم الشهير، وصاحب الفضل الأكبر في تأسيس مذهب أهل السنة والجماعة في الاعتقاد، مذهب أهل الحق الأشاعرة، أو أهل التوفيق والتسديد. واسمه: أبو الحسن علي بن إسماعيل بن إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن بلال بن أبي بردة بن الصحابي الجليل أبي موسى الأشعري -رضى الله عنه-. تحكي لنا المصادر أن أبا الحسن الأشعري كان ينحدر من أسرة سنية جماعية فقد كان أبوه إسماعيل بن إسحاق سنيا جماعيا حديثيا كما أكد ذلك ابن عساكر[3]؛ حيث ذكر أنه كان «سنياً جماعياً حديثياً، (وقد) أوصى عند وفاته إلى زكريا بن يحيى الساجي رحمه الله وهو إمام في الفقه والحديث، وله كتب...وكان يذهب مذهب الشافعي، وقد روى عنه الشيخ أبو الحسن الأشعري في كتاب التفسير أحاديث كثيرة»[4].

1- ابن عساكر: تبيين كذب المفتري ص: 71 .

2- التبيين، ص: 62 وما بعدها. والحديث رواه الحاكم في المستدرك: (كتاب التفسير، تفسير سورة المائدة)، بعناية صالح اللحام، ط1: دار العثمانية بالأردن، ودار ابن حزم بلبنان: 1428: 395/2. (تخريج المجلة).

3- ابن عساكر: تبيين كذب المفتري، ص: 35.

4- التبيين، ص: 35.

وإذا كان الأمر كذلك. فإن أبا الحسن الأشعري كان من أب سني حديثي. وسيكون بالطبع قد نشأ على معتقد أبيه، وتغذى وتشرب منه في صباه، إلى أن بلغ سن العاشرة. في هذه السن سيتوفى والده، وستتزوج أمه بأبي علي الجبائي، إمام معتزلة البصرة في عصره. فما كان من هذا الأخير إلا أن أثّر في أبي الحسن الأشعري تأثيرا مباشرا، حيث جعله معتزلي العقيدة. وهذا التحول العقدي الذي شهده الأشعري في طفولته من السنّة إلى الاعتزال كان تحت مهماز القرابة العائلية من جهة[1]، ومن جهة أخرى تحت وطأة الهيمنة الفكرية للمعتزلة في هذه المرحلة، واكتساحهم الساحة باعتبارهم أهل العدل والتوحيد الذين تصدوا لأهل الأهواء والبدع من الفرق الثنوية، وغلاة الشيعة، والخوارج، ومنكري النبوات من جهة، ومن جهة ثانية لكون السلطة العباسية كانت وقتها قد قربتهم واعتبرتهم المعبرين الشرعيين عن عقيدة الدولة الرسمية.

إن هذه المبررات الواقعية، والمحددات الموضوعية، ساهمت بكيفية مباشرة في دفع الشاب اليافع أبي الحسن إلى أن يندمج في العقيدة الاعتزالية، إلى أن صار واحدا من رجالاتها، وعلما من أعلامها المناظرين المبرزين على طريقها، بل إنه استطاع أن يؤلف على معتقد الاعتزال كتبا ورسائل لم تصلنا.

والحقيقة أن الإمام الأشعري كان قد برّز في الاعتزال تبريزا، حتى عُدّ من كبار نظارهم، متقنا للجدل على طريقتهم، ومتفننا في الدفاع عن أصولهم، محنكا في الردود ضد خصومهم وأعدائهم. حتى إن زوج أمه المعتزلي الشهير أبا علي الجبائي كان إذا «دهمه الحضور في المجالس يبحث عن الأشعري ويقول له: نب عني»[2].

لقد مكث الأشعري على مذهب الاعتزال مدة طويلة إلى أن وصل سنه الأربعين. ذلك أن حالات ريب واختلاجات شك بدأت تنتابه من أصول وقناعات المعتزلة أنفسهم.

1- السبكي: طبقات الشافعية الكبرى تحقيق: محمود محمد الطناحي و عبد الفتاح محمد الحلو، ط: دار إحياء الكتب المصرية: 1971، الجزء: الثالث، ص: 347.

2- التبيين، ص: 91.

فكان يورد الأسئلة على أساتذته في الدروس فلا يجد في إجاباتهم ما يشفي غليله، ويقنعه الإقناع الكافي الشافي[1]. لقد عاش الأشعري تجربة داخلية مع النسق الفكري والعقدي للمعتزلة تمثلت في الإيمان الجامح، والاقتناع القوي بأفكارهم ومعتقداتهم ثم الشك في قيمتها ومصداقيتها العقدية والإيمانية، والتشكيك في تماسكها الداخلي وقوتها الإقناعية.

ذلك أن الأشعري ناظر يوما أستاذه المعتزلي أبا علي الجبائي في ثلاثة إخوة اخترم الله أحدهم قبل البلوغ، وبقي الإثنان، فآمن أحدهم، وكفر الآخر. فسأله أين يذهب الصغير؟ فأجاب الجبائي :إنه يذهب إلى مكان لا سعادة فيه ولا عذاب . فقال الأشعري إن أراد الصغير أن يذهب إلى أهل الدرجات هل يؤذن له؟ قال الجبائي: لا. لأنه يقال له: إن أخاك إنما وصل إلى هذه الدرجات بسبب طاعته الكثيرة وليس لك تلك الطاعات. فقال الأشعري فإن قال ذلك الصغير : التقصير ليس مني فإنك ما أبقيتني ولا أقدرتني على الطاعة. فقال الجبائي: يقول الباريء جل وعلا: كنت أعلم أنك لو بقيت لعصيت وصرت مستحقا للعذاب الأليم فراعيت مصلحتك. فقال الأشعري: فلو قال الأخ الكافر: يا إله العالمين كما علمت حاله فقد علمت حالي فلم راعيت مصلحته دوني؟[2].

نخلص من هذه المناظرة إلى أن الأجوبة المعتزلية على بعض أعوص القضايا العقدية لم تكن مقنعة صاحبنا الأشعري و لم تكن قادرة على تغطية الجانب الإيماني بداخله مما دفعه إلى إعلان الانفصال المعرفي عن هذه الفرقة وإنشاء مذهب عقدي جديد من شأنه أن يخلق التوازن العقدي الإيماني لدى صاحبه ولدى الآخرين.

المحطة الثانية: من الاعتزال إلى السنة والجماعة

هناك تحول مصيري في حياة الإمام أبي الحسن الأشعري وهو ذاك الذي دارت حوله الأقاويل، وتعددت فيه الآراء، وكثرت بصدده التأويلات، ويتعلق الأمر بالتحول من

1- التبيين، 38.

2- انظر: بدوي (عبد الرحمن) مذاهب الإسلاميين، الجزء: الأول، ط: دار العلم للملايين، بيروت: 1971، ص: 499.

الاعتزال إلى السنة والجماعة. إن هذا التحول المفصلي في حياة الإمام أبي الحسن الأشعري يمثل في العمق انتقالا من قناعة إيمانية مذهبية، إلى قناعة إيمانية ومذهبية أخرى. إنه تحول إبستمولوجي. وعادة ما تكون التحولات الإبستمولوجية انعكاسا لما يجري في الساحة، وما يفتعل في واقع الحياة المحيط بأصحابه. لأنها لا تكون نتيجة نزوات شخصية، أو إرادات فردية، بل عصارة لتحول اجتماعي ثقافي فكري...

إن اجتمــاع العوامل الاجتماعية والثقافية والفكريــة ستستدعي ظهــور براديكم paradigm جديد يتطلب بدوره ظهور مذهب عقدي منسجم ومتناسب معه، مذهب يرنو إلى الوسطية ويطلب الاعتدال في كل تصوراته ومعتقداته. ذلك أن النسق العقدي للمعتزلة لم يعد يستجيب لحاجات المرحلة وتوجهات أصحابها. فنأخذ مثلا مسألة العدل الإلهي الذي هو أصل من أصولها الخمسة. فقد بنى المعتزلة أصلهم هذا على العقل وعلى أدلته. وهي أدلة تبدو لبادئ الرأي أنها مقنعة، تقدم قيمة العدالة في شكلها المقبول والمنطقي. فالله عادل عدالة مطلقة بالعقل والنقل إذ لا يمكن تصور الله ظالما أو يصدر منه الظلم. لكن بمنطق الإيمان فإن الانسياق مع التصور المعتزلي للعدل الإلهي يؤدي إلى نفي الفاعلية المطلقة لله في الكون فسيبدو وكأن هناك فاعلين بالتكثير، الله من جهة، والبشر من جهة ثانية. إن الإيمان في مقابل العقل يؤدي إلى الاعتراف لله بالفاعلية المطلقة في الكون كل الكون، وفي جميع المخلوقات. فالله خالق كل شيء. والفاعل في كل شيء. وأن فعل الله غير محكوم بالأسباب والعلل ولا خاضع لمحاكمات عقلية تقيسه على مخلوقاته وتستنتج من ذلك التشابه في معنى الفعل ومعنى العدل.

ثم إن القــول بفعل الله للصلاح والأصلح فكرة معتزلية ما كانت لتقنع عقلا جبارا كعقل الإمــام الأشعري، وما كانت لتؤكد لــه الإيمان واليقين التام بتصــور قدرة الله في الكون وفاعليته فيه. من هنا بدا وكأن صرح المعتزلة بدأ يتهاوى أمام الشكوك والاختلاجات عليه.

لقد تفطن الإمام الأشعري إلى أن الإلزامات المنطقية التي كان يتقنها المعتزلة ويفحمون بها خصومهم تقوم على المقايسة بين مملكة الغائب على مملكة الشاهد؛ أعني قياس الله على مخلوقاته وما يترتب عنها من ضرورات عقلية تجعل الخصوم ينسحبون من المناظرة أو يقبلون أطروحة خصومهم المعتزلة[1]. علاوة على أن استمرار الدولة العباسية في تبني النسق المعتزلي كان سيؤدي بالإسلام إلى الدمار، وتبني أفكار الحشوية والمشبهة سيؤدي إلى الجمود والانهيار[2].

لقد اجتمع في الأشعري ما لم يجتمع في غيره. فقد كان متقنا لأدب المناظرة، وفنون الجدال، بحيث إن الجبائي نفسه كان إذا اشتد عليه الخصوم في المناظرة وداهموه استعان بالأشعري كي يقوم مقامه وينوب عنه في الحجاج والإفحام. ومن جهة أخرى قوة الإيمان والاعتقاد في التتريه المطلق للذات الإلهية.

إن الأشعري بشخصيته الفريدة تفطن إلى أن نسق المعتزلة الفكري قائم على مفهوم مركزي هو مفهوم العدل. لذلك كانوا يسمون بأهل العدل والتوحيد. فأدرك أنه إذا انهار هذا الأصل عندهم انهار النسق المعتزلي بالكامل وتداعى، وبان تهافته للعيان وتبدى. فالمناظرة التي دارت بين الأشعري وزوج أمه الجبائي انصبت على أصل العدل الإلهي (الصلاح والأصلح) لتظهر للناس الصرامة المنطقية المفتقدة في النسق الاعتزالي، أمام قوة الإيمان التي يفترضها التسليم بفعل الله المطلق في الكون وفاعليته فيه.

إن تذبذب الصرامة المنطقية في المنظومة الاعتزالية، وكذا عدم إقناعيتها أمام قوة الإيمان بفاعلية الله المطلقة، اقتضى ظهور مذهب جديد، ومعتقدات بديلة تحل محل الاعتزالية، وتنوب مناباها. وهو ما حدا بالأشعري إلى إيجاد مذهب أهل السنة والجماعة في الاعتقاد الذي سيعرف بمذهب الأشاعرة أو العقيدة السنية الأشعرية.

1- انظر: محجوب بن ميلاد: في سبل السنة الإسلامية، دار بوسلامة للطباعة والنشر، تونس: 1962، ص: 41.

2- حمودة غرابة: الأشعري . مطبعة الرسالة، مصر: 1953، ص: 67.

فلم يكن من السهولة بمكان أن يفيق الرجل بين عشية وضحاها فيأتي بمذهب بديل عن مذهب المعتزلة، فسلطان المعتزلة على المعتقد الإيماني للناس كان قويا، وشوكتهم كانت ذات بأس شديد بين العامة والخاصة وبين أهل الحل والعقد. لأجل هذا بدا الأمر وكأن المسألة تحتاج إلى سياق يمهد لها وإلى مبررات تضفي عليها المشروعية. هنا ستتدخل الرؤيا المنامية باعتبارها آلية من آليـــات التبرير والتفسير ورفع الحرج. إنها رؤيا تستنجد بالرسول العظيم ﷺ لإضفاء المشروعية على المذهب الجديد والبديل في الساحة الإسلامية يومها.

الرؤيا المنامية وتبرير الانفصال المعرفي عن المعتزلة

الواقع أن الرؤى المنامية التي تدخل في تبرير الانفصال المعرفي والعقدي للأشعري عن منظومة المعتزلة تأخذ شكلا لولبيا يحتاج إلى مزيد تعمق وتدقيق من أجل حسن فهمه واستثماره في قراءة السيرة المعرفية للإمام الأشعري وتحولاته المذهبية.

ولنترك الإمام أبا الحسن أولا يروي الرؤيا المنامية الأولى بنفسه حيث يقول: «وقع في صدري في بعض الليالي شيء مما كنت فيه من العقائد فقمت وصليت ركعتين وسألت الله أن يهديني الطريق المستقيم. ونمت فرأيت رسول الله ﷺ في المنام فشكوت إليه ما بي من الأمر. فقال رسول الله ﷺ: عليك بسنتي. فانتبهت وعارضت مسائل الكلام بما وجدت في القرآن والأخبار فأثبته ونبذت ما سواه ورائي ظهريا».

إن هذا النص يشرح الانفصال المعرفي للإمام أبي الحسن عن الاعتزال لكن بطريقة الاستنجاد بالرؤيا المنامية لرسول الله ﷺ، وبرمزيتها في الوجدان الإسلامي. فالمسألة لم تكن اختيارا شخصيا، محكوما بدوافع ذاتية، بقدر ما كانت استجابة لدعوة رسول الله ﷺ ولتوجيهه وهديه. فالشكوك والاختلاجات التي عاشها الأشعري مع النسق المعتزلي في الواقع، وجدت حلولها في الرؤيا المنامية عبر التوجيه والهدي المحمدي له، والذي يطلب منه التخلي عن المنهجية التي تعطي الأولوية للعقل، للاستعاضة عنها بتلك التي تعطي

الأولوية للنص الديني (القرآن والسنة). لقد فهم الأشعري من هذه الإشارة أن عليه أن يتخلى نهائيا عن العقل، ويعتمد في الاستدلال على العقائد الإيمانية على النصوص الشرعية فقط. إنه اختيار على طرف نقيض مع الاختيار المنهجي للمعتزلة.

على أن هناك رؤيا منامية أخرى تزيد في توضيح الأمر وتسلط الأضواء على مبررات الانتقال من مذهب المعتزلة إلى مذهب أهل الحق، أهل السنة والجماعة. يقول فيها أبو الحسن الأشعري نفسه: «بينا أنا نائم في العشر الأول من شهر رمضان رأيت المصطفى ﷺ فقال لي: ياعلي انصر المذاهب المروية عني فإنها الحق. فلما استيقظت دخل علي أمر عظيم و لم أزل مفكرا مهموما لرؤياي ولما أنا عليه من إيضاح الأدلة في خلاف ذلك حتى كان العشر الأواسط فرأيت النبي ﷺ في المنام فقال لي: ما فعلت فيما أمرتك به؟ فقلت: يا رسول الله وما عساي أن أفعل وقد خرّجت للمذاهب المروية عنك وجوها يحتملها الكلام واتبعت الأدلة الصحيحة التي يجوز إطلاقها على الباريء عز وجل فقال لي: انصر المذاهب المروية عني فإنها الحق. فاستيقظت وأنا شديد الأسف والحزن. فأجمعت على ترك الكلام. واتبعت الحديث وتلاوة القرآن. فلما كانت ليلة سبع وعشرين، ومن عاداتنا في البصرة أن يجتمع القراء وأهل العلم والفضل فيختموا القرآن في تلك الليلة. مكثت فيهم على ما جرت عاداتنا. فأخذني من النعاس ما لم أتمالك معه أن قمت. فلما وصلت إلى البيت نمت، وبي من الأسف على ما فاتني من ختم تلك الليلة أمر عظيم. فرأيت النبي ﷺ فقال ما صنعت فيما أمرتك به؟ فقلت قد تركت الكلام ولزمت كتاب الله وسنتك. فقال: ما أمرتك بترك الكلام وإنما أمرتك بنصرة المذاهب المروية عني فإنها الحق. فقلت: يا رسول الله كيف أدع مذهبا تصورت مسائله وعرفت أدلته منذ ثلاثين سنة لرؤيا؟ فقال لي: لولا أني أعلم أن الله تعالى يمدك بمدد من عنده، لما قمت عنك حتى أبين لك وجوهها. وكأنك تعد إتياني إليك هذا رؤيا أو رؤياي جبريل كانت رؤيا؟ إنك لا تراني في هذا المعنى بعدها فجد فيه فإن الله سيمدك بمدد من عنده فقال (الأشعري) فاستيقظت فقلت: ما بعد الحق إلا الضلال. وأخذت في نصرة الأحاديث في الرؤية، والشفاعة، والنظر، وغير

ذلك. فكان يأتيني شيء والله ما سمعته من خصم قط، ولا رأيته في كتاب، فعلمت أن ذلك من مدد الله تعالى الذي يبشرني به رسول الله ﷺ»[1].

نستنتج من خلال هذا النص أن هذه الرؤيا المنامية تزيد في تسليط الضوء على طبيعة التحول الذي عاشه الإمام أبو الحسن ومبرراته الدينية ومصداقيته الشرعية التي تكرع من توجيهات رسول الله ﷺ. إن هذا النص نقرأ ما بين سطوره الحاجة الماسة التي كان عليها العالم الإسلامي إلى عقيدة وسطية سنية تدافع عن العقائد الإيمانية المروية عن سيدنا محمد ﷺ بالأدلة العقلية وتبسطها وتفصلها للناس. وتضمن للدين استمراريته وصموده، أو جموده. فمن خلال هذا النص نلمس تحول الإمام الأشعري من علم الكلام إلى السنة. وهو تحول لا يلبي حاجة المجتمع المتمثلة في الرد على أهل الأهواء والبدع في المعتقد، من عقائد الفرق الضالة، من معتزلة، وروافض، وخوارج، ومرجئة، وثنوية، ومنكري النبوات...الخ فجاءت الرؤيا المنامية الأخرى التي ترسم لأبي الحسن السبيل الواضح في خلق مذهب جديد في العقائد يكون علامة على علم الكلام السني الجديد والمتمثل في عقيدة أبي الحسن الأشعري التي تتكلم على النظر، ورؤية الله، والشفاعة...إلخ.

وعقب هذه الرؤى المنامية انغرست في نفس أبي الحسن معالم مذهب جديد. فراح يحدد تفاصيله وتوجهاته ودقائق أموره. فغاب عن الناس خمسة عشر يوما ثم خرج إلى الجامع وصعد المنبر وقال: «معاشر الناس إنما تغيبت عنكم هذه المدة لأني نظرت فتكافأت عندي الأدلة و لم يترجح عندي شيء على شيء. فاستهديت الله تعالى فهداني إلى اعتقاد ما أودعته في كتبي هذه. وانخلعت من جميع ماكنت أعتقده كما انخلعت من ثوبي هذا»، وانخلع من ثوب كان عليه ورمى به ودفع الكتب التي ألفها على مذاهب أهل السنة إلى الناس[2].

1- السبكي: طبقات الشافعية، ج: 3، ص: 348، وعبد الرحمن بدوي: مذاهب الإسلاميين، ص: 490.

2- السبكي: طبقات الشافعية، ج: 3، ص: 347.

يبدو من خلال هذه المنعرجات التي مر منها فكر الإمام الأشعري، أنها ترسم منحنى يمر عبر السنّة عشر سنوات أولى من حياة الإمام، ثم يعرّج ثلاثين سنة على الاعتزال. ثم ينتهي في النهاية عند مذهب أهل السنة الأشاعرة، المذهب الجديد الذي أظهره للوجود صاحبنا الأشعري، والذي تسمى باسمه ومات عليه. وما عدا ذلك من كلام خصوم الإمام من الحنابلة فلم يكن إلا لغطا وتشويشا على مذهب سكن في وجدان الغالبية العظمى من مسلمي الكون. فكل المالكية في العالم الإسلامي كانوا أشاعرة. وجل الشافعية كانوا كذلك. وجل الحنفية أيضا. يضاف إليهم بعض فضلاء الحنابلة. وأما القول بأن الإمام الأشعري مات على عقيدة الحنابلة في تجسيم الله، ونسبة الجهة إليه، وعدم تأويل المتشابه من الآي...الخ فهو كلام لا تؤيده الأدلة، ولا يستقيم مع منطق الأشياء وسأكتفي بذكر دليلين يؤيدان هذه الدعوى.

الأول: أن ما تواتر عن الإمام من مذهبه، وما تناقله الجمع المستفيض من عدول هذه الأمة من أمثال ابن فورك، والباهلي، والباقلاني، وأبي عمران الفاسي، والقابسي، والجويني، والغزالي، وابن تومرت، وابن العربي، والقاضي عياض، والسلالجي، وصلاح الدين الأيوبي، والزركشي، والسبكي والسيوطي...إلخ فهل كان هؤلاء مزوّرين للحقائق والوقائع؟ إن المذهب لم يولد مع الإمام أبي الحسن ناضجا نضجا تاما بل عرف تطوره ونموه وتجدده عبر الحقب والعصور وهو ما يفتأ يتجدد ويتطور مع الأجيال والدهور فقد خلف كل عالم من علماء المذهب طابعه، وترك بصمته، وساهم في نموه وتطويره وتقدمه ونمائه.

الثاني: هو أن الحنابلة أنفسهم الذين يروجون لهذه الدعوى ويرون أن الإمام انتهى به الأمر على عقيدتهم. لماذا لم يكفوا عن الطعن فيه وسبه وشتمه وإخراجه عن الملة والدين عبر هذه القرون الماضية الطويلة؟ فلو كان حقا عاد إلى معتقدهم وشاركهم فيه لكان في نظرهم من "التائبين الطائعين" ولما أشبعوه شتما وسبا، ولما تطاولوا على شخصه، ولما

تحايلوا على محاسنه. ومن ذلك أن الذهبي وهو من كبار علمائهم حينما ترجم للأشعري أورد له ترجمة مختصرة، تغاضى فيها عن فضائله ومحاسنه، و لم يذكر منها إلا ما كان مشهورا ومستفيضا بين الناس واكتفى بالإحالة على كتاب ابن عساكر تبيين كذب المفتري. في حين أنه كان يترجم لأصاغر المتأخرة من الحنابلة المغمورين الذين لا يعرفهم الناس و لم يذكرهم التاريخ إلا استطرادا، فيفرد لهم ترجمة وافية شافية في العديد من الصفحات[1]. بل إننا نجده في نهاية ترجمته للإمام الأشعري يبدي التنكر لمذهبه، والنكير عليه وعلى آرائه، بالتلميح والتشهير، حيث يقول: «اللهم توفنا على السنة، وأدخلنا الجنة، واجعل أنفسنا مطمئنة، نحب فيك أولياءك، ونبغض فيك أعداءك، ونستغفر للعصاة من عبادك، ونعمل بمحكم كتابك، ونؤمن بمتشابهه، ونصفك بما وصفت به نفسك»[2].

المصادر والمراجع

- بدوي عبد الرحمن، مذاهب الإسلاميين ط: دار العلم للملايين، بيروت: 1971.
- ابن عساكر، تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام الأشعري. نشرة القدسي مطبعة التوثيق دمشق: 1347.
- حمودة غرابة: الأشعري - مطبعة الرسالة، مصر: 1953.
- السبكي تاج الدين، طبقات الشافعية الكبرى: تحقيق محمود محمد الطناحي و عبد الفتاح محمد الحلو، ط: دار إحياء الكتب المصرية: 1971.
- محجوب بن ميلاد، في سبل السنة الإسلامية، دار بوسلامة للطباعة والنشر، تونس: 1962.
- مسلم ابن الحجاج، صحيح مسلم، (كتاب الإيمان- باب: تفاضل أهل الإيمان فيه)، بعناية: محمد فؤاد عبد الباقي، ط: دار الفكر، بيروت: 1983/1403.
- النيسابوري الحاكم، المستدرك (كتاب التفسير، تفسير سورة المائدة)، بعناية صالح اللحام، ط1: دار العثمانية بالأردن، ودار ابن حزم بلبنان: 1428.

1- السبكي: طبقات الشافعية، ج: 3، ص: 352 ـ 353.

2- المصدر والصفحة السابقان.